كتابان من مصر

يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداهما في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية) ، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس ؟

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً . ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول ، يرى الناظر مقالتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد : احداهما بعنوان « الرد الجميل لالهيات عيسى بصريح الانجيل » . ومن الغريب حقًّا أن يبقى هذا الاثر لعالم من اجل العلماء ، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منهُ قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون . ومع شكرنا لجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي ، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة ، حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية) . وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط ، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية ، كما سترى ، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين ، من نصارى ومسلمين . ولقد رأى العلماء والباحثون ، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية ، انفسهم امام لغز يستوقف النباهة حقًّا . فان الامام الغزالي رضي الله عنهُ اقتبس في كتابه « احياء علوم الدين » اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الاندلسي العظيم « أسين بلثيوس Asin Palacios » ، وقد ثبت أنها جميعاً ، ما عدا قولين منها ، ليست من الانجيل ، وهي شديدة النزعة الصوفية ، ولعلها مستقاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى . ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال ، ولكنهُ يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنهُ لم يكن العهد الجديد

والآن نحيء الى منار الدهشة . فان السيد ماسينيون ، الاستاذ بكلية فرانسا « كوليج دو فرانس » كان اول من وجّه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المخطوطة في استنبول حافلة

مقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكاتب الا اذا كانت أمامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ؟ وكيف ومتى اطلع إمامنا العلامة على الانجيل الكريم ؟ يذهب الاستاذ «ماسينيون» الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهيأت للامام العلامة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هجرية) ومما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللهجة « البحيرية » ومن المستبعد جدًّا ان يتيسر له هذا في غير مصر

ورغبة في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي الخصيصة بالالفاظ كاللغة العربية ، كان طبيعيًّا ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى

وقد أتيحت الفرصة لكتابة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبة في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفي الامام الغزالي سنة ١١١١م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية ، فراجعت الكاتبة تقابل مقتبسات الغزالي بنماذج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لا في الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية

أفلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ؟ ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانه يهيء لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم يلقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي (وهو اقتبس خمساً وسبعين آية من الانجيل وحده) ، فيجب ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١م وهي السنة التي توفي فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية ، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفاتيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم يعاودين احدها باللغة القبطية والآخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله

اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر ، والمخطوطة

التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت حوالي سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، اي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عينها . أفتكون هناك نسخة خطية اخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصددها يهيء لنا الجواب على ذلك لانها تسمح الى الخطر الذي كان يهدّد نسخ الانجيل في تلك الايام الخاصة

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبتا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي ما زالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريرك القبطي غبريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . ويأمر غبطة البطريرك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم (وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل) . ثم ينهي البطريرك بتاتاً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنهُ ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها (ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانة ») بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الآحاد والاعياد ، يقرأونهُ صباحاً ومساء » . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوته للدرس او البحث ، فله ان يفعل ذلك على أن يعيده الى الكنيسة

ويخيل الينا ان تلك المخطوطة كانت قد ثمينة جداً ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كهفهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي ، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية

ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بمأمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى (في سنة ١٥٠٦م) بيد البطريرك القبطي في ذلك الزمن — واسمه الانبا يوحنا — ويسجل فيها حل قيود الوقف التي حبست الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير « كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل . ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريرك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الرهبان على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها

كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . وانا لنشكر الله أن أتى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما إلى القرن الثالث عشر ، إحداهما محفوظة في استنبول مع مقالة للامام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لإزاحة الحجب عنهُ ، لما فيه من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »